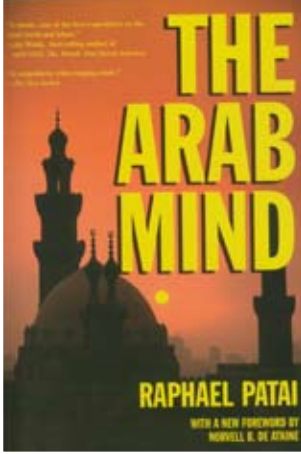


# العقل العربي

تأليف: رافائيل باتاي

ترجمة: علي الحارس



## الفصل الثالث عشر

### الوحدة والصراع

#### 1. مفهوم الوحدة العربية

لاحظ العديد من مراقبي الوضع العربي الحالي حالة من التناقض ما بين التأكيد المتكرر على الوحدة العربية وبين الصراعات المستمرة التي تميز العلاقات العربية-العربية. إن مفهوم الوحدة يرد بصراحة في دساتير عدة دول عربية كسورية والعراق والكويت واليمن ومصر وليبيا وتونس والجزائر. وكل من هذه الدساتير يعلن أن دولته جزءاً من «الأمة العربية» أو «الوطن العربي» أو «الأسرة العربية» أو «العالم العربي». ويمكن سماع هذا الإعلان مكرراً بالتشديد عليه بإصرار روتيني على ألسنة قادة الدول العربية في خطاباتهم وكتاباتهم. ملخصاً ضمن مصطلح «القومية العربية» التي تعني دوماً الوحدة القومية لكافة العرب. ويميل الكثير من الكتاب العرب إلى اعتبار أن الدول العربية ما هي إلا أجزاء من «أرض الآباء والأجداد».

إن مفهوم الوحدة القومية لكافة العرب مفهوم حديث جداً؛ إذ كان الرأي العام العربي ملتفاً حول المحور الإسلامي طوال التاريخ، وهو محور يعتبر المسلمين أمة واحدة. ومع وجود دول متعددة ضمن نطاق الإسلام على مدى قرون، لم تعترف الشريعة الإسلامية إلا بكيان إسلامي واحد لا يتجزأ: «أمة محمد». وهذا المفهوم يرد بصراحة في القول الشائع القديم: «لا أمة في الإسلام». وله جزء يكمله بذات النظرة الأحادية للعالم غير الإسلامي: «الكفر ملة واحدة». وهو يعني أن جميع البشر من غير المسلمين يشكلون كياناً يمكن اعتباره وحدة أممية واحدة. ويتم التصريح بهذا التعارض بين هذين القسمين الكبيرين من العالم بشكل أكثر صراحة في المقارنة بين مصطلحي «دار الإسلام» و«دار الحرب» اللذين وقفاً بمواجهة بعضهما منذ تأسيس الإسلام.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

في العديد من مقالات الصحف والمنشورات والكراريس تجد الوحدة الإسلامية تشكل الموضوع الأساسي. ولنأخذ مثالا على ذلك كراس محمد أبوزهرة الذي حمل عنوان (الوحدة الإسلامية). وفيه يحاجج أبوزهرة بأن المسلمين أمة واحدة. تربطهم رابطة الدين والعقيدة والعبادة والأخلاق الإسلامية. ولذلك يجب عليهم أن يناضلوا لتوحيد بلدانهم في رابطة الأمم الإسلامية أو أي اتحاد إسلامي. كما رسم خطوطا عاما للمبادئ التي ينبغي على كل عضو في هذا الاتحاد أن يلتزم بها: وهي أن علاقة الأخوة التي تربط المسلمين تفرض عليهم أن يحلوا صراعاتهم كافة بشكل داخلي. وأن العدوان على أي فرد أو دولة مسلمة هو عدوان على المسلمين جميعا. وأن جميع الدول المسلمة عليها أن تتكاتف في القتال لتحرير أخواتها اللواتي يرزحن تحت نير أعداء الإسلام. وأن المسلمين لا يحكمهم إلا المسلمون. وأخيرا: كل تخطيط أو نشاط اقتصادي أو مالي أو تجاري في الدول الإسلامية يجب أن يقوم به المسلمون حصرا.

ويتفق الكثير من المفكرين العرب المعاصرين مع وجهة النظر هذه. فعلى سبيل المثال: يشكك الكاتب اللبناني فتحي يكن في كراس يحمل عنوان (رسالة القومية العربية) بالأسس التي تقوم عليها فكرة القومية العربية. وهي: اللغة والتاريخ والعرف والمصير والشعور.... ويحتج بأن الدين الإسلامي يمثل الأساس الجوهرية لهذه القومية. وأن التلازم ما بين الدين والسياسة يوجب أن تكون رسالة القومية العربية منصبة على تحرير وتوحيد نصف مليار مسلم في دولة واحدة تتأسس على تعاليم ومبادئ الإسلام.

وبالرغم من ذلك. أدى تأثير موجة التغريب إلى أن تحوز فكرة الأمة العربية بشكل تدريجي على القبول لدى الجيل الشاب من المثقفين العرب. حيث لم يبدأ مفهوم الكيان السياسي للأمة. بما له من اختلاف عن التجمع الموحد برابطة الدين الإسلامي. ينتشر في الدول العربية إلا في القرن العشرين. وتم ذلك تحت تأثير أوروبي. ومن أجل التعبير عن فكرة (الانتماء العرقي) تمت صياغة كلمة عربية جديدة: (القومية). وهي مشتقة من (قوم) التي تعني: الشعب. الأتباع. المجموعة. القبيلة. وبالأخص: مجموعة الأقارب التي تنهض

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

لتقديم دعم متبادل في ما بينها. ونجد في محضر أعمال جلسة عقدت بين طلبية عرب في بروكسل عام 1938 مصطلح «قومية». والذي لم تمض على صياغته غير أعوام معدودة. معرّفاً بأنه «الإحساس بالضرورة الراهنة لتحرير وتوحيد سكان الأرض العربية على ضوء وحدة الوطن واللغة والثقافة والتاريخ. والحاجة إلى تطوير الأمور ذات الاهتمام المشترك. كما تم تعريف «الحركة العربية» بأنها «النهضة العربية الجديدة المستمرة دائماً في الأمة العربية. والتي تحركها حوافز تاريخها المجيد، وحيويتها الفريدة. وحقوقها المشروعة في الحاضر والمستقبل».

طبقاً لهذه التصريحات، تتأسس فكرة الوحدة العربية على عناصر مشتركة في الأرض واللغة والثقافة والتاريخ. وعلى عناصر مشتركة غير محددة تتعلق بالهموم والمصالح. وفي مقابل هذه العناصر الخمسة التي تعكس وجهة نظر التوجهات القومية، يميز المفكر الإسلامي اللبناني عبدالله العلايلي ستة مميزات يتأسس عليها «الشعور القومي» العربي؛ وهي: اللغة، المصالح المشتركة «ضمن الوطن العربي الكبير»، البيئة الجغرافية ذات التأثير العظيم على «نفسية العرب ومزاجهم»، ورابطة الدم، والتاريخ المشترك، والأزياء المتشابهة<sup>1</sup>.

ولا يخرج تحليل العلايلي عن كتابات غيره من الكتاب العرب. ومن النادر أن نجد من يقدم طرحاً جديداً يخرج بشكل جذري عن المسار العام؛ وبالرغم من ذلك، يمكننا أن نجد الكثير من التباينات في طرح موضوع الوحدة العربية، فمثلاً نجد الكاتب اللبناني المسيحي نبيه أمين فارس ينتقد في كتابه (العرب الأحياء) تلك الأسس التي يرى كثيرون بأنها تكون قاعدة الوحدة العربية؛ إذ يرى فارس أن الوحدة القائمة على أساس عرقي ليست أساساً أصيلاً للوحدة العربية، وذلك لأن الكثير من العرب، ومن بينهم ملوكهم، ذوو دماء مختلطة، بينما هم عرب «إلى النخاع بالنظر إلى اللغة والقوة التثقيفية للتاريخ». كما يرى فارس أن الأساس الجغرافي غير ذي بال لأن الكثير من الأجانب عاشوا على الأرض العربية دون أن

(1) عبدالله العلايلي: دستور العرب القومي: ص 88-95.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

يصبحوا عربا. وينتقل فارس إلى نقض الأساس الديني الذي يرى أنه ليس أساسا للعروبة. وأنه لم يكن كذلك في يوم من الأيام. باعتبار أن الكثير من غير المسلمين كانوا عربا أقحاح وساهموا بشكل مهم في الثقافة العربية. ثم يطرح فارس رأيه الخاص حول موضوع الوحدة العربية. فيرى أن أسسها الراسخة تكمن في عنصرين اثنين: اللغة العربية. و«قوة التاريخ التكوينية». ويشرح فارس مفهوم «قوة التاريخ التكوينية». فيقول بأنها لا تحتوي الأحداث التاريخية فحسب. وإنما...

العادات، والتقاليد، والحكايات، والقصص، والأساطير، والعبر التي حركت في قلوب الناس مشاعر التسامح والأسى والسعادة والحزن، والتي أيقظت فيهم روح المبادرة ووضعتهم في المقدمة. إن هذه العناصر التعليمية التي عاشت عبر التاريخ يجب أن تتجه إلى تهيئة الأفراد كي يتحملوا، بوعي أو بدون وعي، مسؤولية هذا التاريخ. وأن يقوموا بتطويره.<sup>1</sup>

بعد ذلك بسنوات قليلة ألف فارس كتابا آخر بالاشتراك مع محمد توفيق حسين. وهو كاتب عربي مسلم. وفي هذا الكتاب أشار الكاتبان إلى عاملين إضافيين قد يجعلان من العرب أمة واحدة بشكل تدريجي؛ وهما: الدين الواحد (الإسلام)، والنفسية الواحدة. وسنركز في السياق الحالي على العامل الأخير الذي سجل الكاتبان معناه بأن «العرب يختلفون بشكل طفيف في موقفهم من المشاكل المختلفة في الحياة، وفي استجاباتهم للمؤثرات الخارجية» ويدخل ضمن ذلك كرامة الفرد، والجهد الإنساني، والوقت، والنساء، والشرف، والرجولة، والولاء، والكرم، وحسن الضيافة، وحفظ حق الجار. ويشرح الكاتبان هذا التوافق من خلال الإشارة إلى التشابه في «الأسس الاقتصادية والاجتماعية والدينية التي يستند إليها المجتمع العربي». ويضيفان بأن المجتمع العربي اتسم بكونه مجتمعا زراعيا منذ عصور موعلة في القدم. «وتنظمت فيه خلال تلك الفترة مستويات إقطاعية وقبلية ودينية». وكان الدين «بما فيه من إيمان، قبل كل شيء، بإله غير مرئي، واستسلام للقدر:

(1) نبيه أمين فارس: العرب الأحياء: ص102.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

مهيمننا على حياة العرب طيلة قرون». وكانت المدن تحوي ثلة قوية من «الإقطاعيين الذين يستغلون عمل الأغلبية». بينما كانت القبائل البدوية شبه الرعوية «تترك طابع نفسيتها القبلية الرعوية على السكان جميعهم». لقد كانت السلطات الحكومية دائما من النمط الملكي الذي ربما يجنح إلى استعمال القوة. أما الأدب العربي فدأب على أن يكون «مسكونا بالروح العظمى للإسلام». ولاحظ الكاتبان خاصية محددة في عقيدة المسلمين تميل بهم إلى «شل إرادة الإبداع لديهم، مما يقودهم إلى الحلم بأمجاد الماضي غير مدركين لمشاكلهم الراهنة الملحة».

يشوب الغموض الموقف الحقيقي للقوميين العرب من الدين كعامل توحيد للعالم العربي. فهم كانوا فخورين بشكل عام بالدور العربي في تقديم الإسلام للعالم وتحويله إلى دين يعتنقه سدس أو سبع سكان الأرض. ولم يكن لديهم شك في وجود عامل مشترك يوحد المسلمين فوافقوا على أن «لا أمم في الإسلام». ولكنهم في الوقت ذاته، وبتأثير من أفكار القومية التي استمدوها من الغرب، شعروا بأن الروابط التي توحد العرب أقوى من تلك التي تجمع العرب بغيرهم من الدول الإسلامية غير العربية. وإذا كانت «دار الإسلام» كيانا واحدا، فإن العالم العربي يمثل حرم هذه الدار. إن هذا الشعور بأولوية الوحدة العربية جلب شيئا من الاعتراض من جانب أنصار مبدأ الأمة الإسلامية الذين يعتقدون بأن الرابط الديني هو الرابط الأقوى والأقدس، وهو أمر كان القوميون العرب يعتبرونه مجرد أداة تاريخية أو دينية لعبت دورا ما في تشكيل الوحدة العربية. وبما أنهم قاموا وفق هذا الاعتقاد بالحث من منزلة الإسلام إلى منزلة ثانوية من أسس الوحدة العربية. يبدو أنهم شعروا بالحاجة إلى إضافة أسس أخرى تتجاوز وتعلو على أسس اللغة والتاريخ المشترك.

وفقا لدعاة القومية العربية، تتكون هذه القومية من مجموعة العرب الناطقين باللغة العربية، والذين يقطنون رقعة شاسعة تمتد من المحيط الأطلسي إلى الخليج العربي وتتميز بالكثير من الصفات الجغرافية المتشابهة. أما العرب فهم «عرق شاب يرجع أصله إلى الانصهار المتناغم للعديد من السلالات البشرية التي جمعها الإسلام في بوتقة واحدة».

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

وأدى هذا المزيج إلى تشابه شديد في المواهب الفكرية والأخلاقية بالرغم من بقاء مجموعة متنوعة من الصفات الجسمانية للأعراق الأصلية. إن هذا «العرق» العربي لا يعترف بالتمييز على أساس اللون. وهو شديد «التنوع والشجاعة والحماس والصبر والتحمل ويقوده حس العدالة». وتعتبر لغة هذا العرق، العربية، متفوقة على غيرها، وتمنح العرب إمكانية لعب دور حضاري عظيم. أما الإسلام، وهو يكاد يكون دين العرب كافة، فهو يمنح العروبة مساحة من القيم الروحية تجعلها تواجه المادية الغربية. وسواء أكانت هنالك تقسيمات داخلية ضمن العرب، كالقبائل والمذاهب، فهي ليست غير نتيجة للجهل أو التدخلات الخارجية.<sup>1</sup> وثمة عناصر أخرى للقومية العربية تأتي من الادعاء بأن الميزات المذهلة للحضارة الغربية ما هي في الأصل إلا إسهامات من العرب أو المسلمين. ومنها ما يأتي من «الشعور الخاص بكون العرب شعباً مختاراً» بما لهذا الشعب من موقع مركزي في الإسلام.<sup>2</sup>

يعتقد بعض المحللين العرب أن العناصر السابقة تشكل الخصائص الرئيسية التي تصنع القومية العربية. ويمكن أن يلاحظ المرء أن الوعي العربي مسكون بشعور ضبابي غير متبلور يؤمن بأن العرب شعب واحد. وأن الأيام لن تطول عليهم حتى يتحقق ذلك على صعيد الواقع. أما القادة السياسيون فيجدون من الأنفع لهم أن يعيدوا التأكيد على التزامهم بالوحدة العربية في كل مناسبة، وبالأخص عندما يكونون في خضم صراع أو خصومة مع دولة عربية أخرى. وإذا أردنا الكلام على مستوى الشارع العربي، نجد أنه لا يعرف الكثير عن العلاقات العربية-العربية. لكن كلمة «العرب» تكاد تملك قوة سحرية تستحوذ عليه، فتصبح الأنباء الواردة عن تعرض العرب لمحنة ما، مهما بعدت المسافة، كفيلة بتحريضه بسهولة على إبداء مظاهر عنيفة تعبر عن تضامنه. ولا يحتاج العربي إلى إثبات لمفهوم الأخوة العربية، فهي عنده حقيقة لا جدال فيها، وتشكل ركناً من العقيدة، لذلك لا تحتاج إلى البرهان ولا يمكن إنكارها أو التشكيك بها، شأنها شأن الأركان الأخرى. وذلك

(1) عبدالرحمان عزام: مقالة في صحيفة (العرب) الصادرة في القدس (27-8-1932).

(2) فون غرونباوم (Von Grunebaum): الإسلام الحديث؛ ص285.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

على الرغم من وجود أمثلة محددة لحالات من التفرقة. والحروب الأخوية. أو أي مظهر آخر من مظاهر الشقاق والنزاع والخصام.

### 2. القتال... بالسنان واللسان

على الرغم من كل ما سبق، لم تستطع الوحدة الدينية الإسلامية ولا الوحدة العربية على مستوى الثقافة والشعب أن تتغلب على الشقاق والميل إلى الصراع الذي يتأتى من تراث عربي يعود إلى فترة ما قبل الإسلام؛ ومن أهم خصائص هذا التراث القانون الذي جاء من منطقة الشرق الأدنى: وهو قانون الثأر. وبموجب هذا القانون لا تقع مسؤولية أخذ الثأر على من وقع عليه الظلم أو قرابته الأدينين فحسب، وإنما يعتبر ذلك واجبا يعاقب من لا يلتزم به بعقوبة تلطيخ سمعتهم بالعار. ونتيجة لهذا القانون الذي تلخصه عبارة «العين بالعين» أو «الدم يطلب الدم»، كانت العداوات الثأرية بين الأسر والعشائر تشكل جزءا طبيعيا من الحياة اليومية للكثير من الأجيال قبل مجيء الإسلام.

ويجب الإشارة هنا إلى أن العداوات الثأرية ليست ولم تكن في يوم من الأيام أمرا خاصا بالعرب وحدهم، وإنما وجدت في العادات والتقاليد المتوسطة أيضا. لكن العرب وحدهم هم الذين استمروا باعتبارها قيمة ذات أهمية ومنزلة عليا.

تشكل العداوات الثأرية جزءا جوهريا ونتيجة لا مناص منها للتلاحم الشديد الذي تتميز بها الجماعة في العرف العربي. ففي مجتمع يشهد مثل هذا التشديد الهائل على العشيرة، وتكون فيه المصالح الشخصية أمرا ثانويا بالنسبة لمصالح الأسرة والعشيرة، وتحتل فيه السمعة الحسنة المنزلة الأولى في قائمة الأولويات، لا يمكن الحيلولة دون أن تؤدي كل عملية قتل، سواء كانت عمدا أم خطأ، إلى طلب الثأر وإشعال سلسلة من عمليات الانتقام التي تطال في زمن قصير عددا متزايدا من الرجال والعشائر.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

إضافة إلى ذلك، يمكن أن تعتبر العداوات الثأرية مجرد مظهر صريح لميل عربي عام إلى القتال والصراع. وكما أن أخذ الثأر اعتُبر من القيم وأمرًا يعيد للمرء شرفه السليب. فإن القتال عموماً يأخذ هذه المنزلة. وصرحت هذه الروح القتالية بوجودها بأشكال عدة خلال التاريخ العربي الإسلامي؛ حيث ألهمت حماسة جيوش كبيرة وقادتها في معارك انتصرت بها على الكفار في ثلاث قارات. وفي أحيان أخرى حرّضت العرب على قتال بعضهم البعض. ثم جاء عصر الانحطاط الذي يشجبه الكثير من المؤرخين العرب. وفيه عبرت الروح القتالية عن نفسها بالشتم والإهانات والتهديد والصراخ، بدلا عن القتال الجسدي.

كان القتال بين العرب قبل الإسلام معلما بارزا من معالم الحياة العامة. لذلك وجد النبي محمد من الضروري إعلان فترة «هدنة مقدسة» خلال أربعة أشهر من كل عام. وفيها يحرم القتال بكافة أنواعه وتخصص للعبادة والتجارة. ومن العوامل المهمة التي ساهمت في نجاح النبي محمد في حشد سكان شبه الجزيرة العربية حول دعوته للدين الجديد كان الحقيقة المتمثلة في أن العداوات الثأرية أضعفت القبائل العربية وجعلت من المستحيل عليها أن تتحد ضده. ويروي المؤرخون العرب أن هذه العداوات كانت كثيرة إلى حد جعل كل قبيلة تطلب ثأرا من قبيلة واحدة أو أكثر. وبالرغم من أن عدد القتلى في هذه العداوات ربما لم يصل إلى أرقام ضخمة. فإن الكراهية ما بين القبائل وصلت إلى حد جعلها عاجزة عن التحالف لتكوين حركة مقاومة حقيقية ضد الجيش الإسلامي بقيادة النبي محمد.

وكان من سمات العداوات القبلية والعائلية قبل الإسلام أنها ضجيج أكثر منها قتال. ويمكن ملاحظة ذلك لمن يدرس تاريخ (أيام العرب). إذ يتبين أن عددا من الأحداث المفتخر بها لم تكن معارك حقيقية على الإطلاق. وإنما مناوشات غير مهمة لا يشارك في الكثير منها إلا بضعة عائلات أو أفراد؛ أما المعارك التي تدعى بـ(الكبرى) فلم تكن غير ترام بالحجارة وتضارب بالعصي. ويحمل العديد من هذه (الأيام) سمة نمطية: وهي أن يلتقي عدة أشخاص للتضارب. وعادة يكون ذلك إثر نزاع أو إهانة. ثم ينمو الشجار ليصبح عدا بين القبليتين بأكملهما. لتلتقي القبيلتان في معركة بعد ذلك. ثم لا يلبث أن يسقط قتلى

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

في الجانبين، فتتدخل عائلة محايدة ويعود السلام على أن تدفع القبيلة التي فقدت العدد الأقل من القتلى ديات فارق عدد القتلى للقبيلة الأخرى. إن هذا النمط يبدو أنه يشير إلى أن الأقوال كانت هي السلاح الأساسي في القتال القبلي حتى خلال العصور القديمة، ولم يكن القتال الحقيقي يندلع إلا إذا خرجت الأمور عن نطاق السيطرة، وعندها يتم إيقاف النزاع بأسرع ما يمكن.

لا يزال ذلك النمط حيا إلى يومنا هذا. ففي الجزائر، نجد أن قبائل البربر التي تأثرت بشكل جوهري بالثقافة العربية الدخيلة عليها تسعى الأطراف السياسية والقتالية فيها إلى تسوية العداوات «على شكل لعبة ذات نظام محكم، ومنافسة منظمة». وتكون المناوشات القبلية تأخذ أحيانا شكل طقس ما: حيث يتبادل الطرفان الإهانات، ثم الضربات؛ وخلال ذلك تقوم النساء بتشجيع الرجال عن طريق الصياح أو الغناء الذي يمجّد شرف العائلة وحيويتها. ولم يكن الغرض من هذه المناوشات قتل أو تحطيم الخصم، ولكن إظهار من يحتل موقع السيطرة باستخدام أداء رمزي عموما... ولم تكن الوفيات تحدث في مثل هذه المناوشات إلا عن طريق حادث مؤسف، أو عندما يهدد الطرف الأقوى بالهجوم على مساكن الطرف المحاصر، وهو ما يعتبر تهديدا للشرف في معقله، مما يؤدي إلى الاستعانة بالأسلحة النارية، وكان هذا لوحده كفيلا بإنهاء القتال؛ إذ يتدخل عندها الوسطاء (يطلق على واحد منهم: المربوط)، ويطلبون من المعتدين أن ينسحبوا، ويتعهدوا لهم بأن لا يتم التحرش بهم أثناء الانسحاب. وبهذه الطريقة وغيرها يتصرف (المربوطون) كوسطاء، ويعلنون نهاية القتال دون إلحاق العار بأي من الطرفين. وبهذه الطريقة، يكون الوسطاء قد تدخلوا ووضعوا نهاية للقتال في اللحظة التي يتخذ فيها طابعا دمويا. ومع ذلك، يمكن لحالة الحرب بين القبائل أن تستمر لعدة سنين، لذلك يمكن القول أن العداوات كانت حالة مستمرة تمر بتوقفات مؤقتة تفرضها هدنات متكررة يتم التوافق عليها وضماتها وفق مبدأ الشرف.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

مهما كان رأينا عن الرجولة التي يبديها الأطراف في هذا النوع من الصراع. فإن أمرا واحدا يمكن قوله دون تحفظات؛ وهو أن هذه الطريقة في الصراع أكثر إنسانية من أنماط القتل المبالغ فيه التي تطورت تدريجيا في الغرب وشهدناها في صراعاته الأخيرة. وسواء أكان تقاتل العرب مسلحا بالبنادق أم بالعصي والحجارة أم بالإهانات اللفظية، فإنهم يعتبرون ما به من عدوانية تعبيراً مشرفاً عن الرجولة.

وبالنظر إلى أن العرب كانوا أمة تعنى بالشعر، كانت الشجاعة في الوقوف في وجه الأعداء موضوعاً مفضلاً في شعر المدح؛ حيث نظمت الكثير من القصائد القديمة لتمجيد شجاعة قبيلة الشاعر. وحوت بعض القصائد تغنياً للشاعر بقدراته هو في القتال، وفي الواقع. هنالك من أشهر الشعراء العرب الأقدمين من لم تتجاوز قصائده التغني بشخصيته وإنجازاته إلا في ما ندر. وبالإضافة إلى الشجاعة في المعارك، احتوت قيم المروءة العربية القديمة على صفات أخرى كالصبر عند الشدائد، والإصرار على أخذ الثأر، وحماية الضعيف، والوقوف في وجه القوي؛ وهنالك صفات أخرى تكملية مثل: الولاء، والإخلاص، والكرم. إن كل تلك الصفات تصب جميعاً في مجرى شرف المرء الذي ينبغي أن يتم الدفاع عنه بغض النظر عن التضحيات المطلوبة. وفي مقابل قيمة الشرف تتضاءل قيمة حياة المرء، وهي ظاهرة نلمحها في الكثير من القصص، الجديدة والقديمة، التي تروي كيف أن شخصاً ما ينفذ التماساً ما يتعلق بالشرف، أو يحمي أو يستعيد شرفه، بالرغم من أن ذلك يكلفه حياة ولده أو أحد أتباعه. ولقد طرح أحد أصدقائي العرب ممن يقرؤون تراث ثقافات عديدة ملاحظة نقدية تشير إلى أن كلا من العرب واليابانيين جاهزون للقتل في سبيل استرجاع الشرف الضائع؛ ولكن الفرق أن الياباني يقتل نفسه، أما العربي فيقتل الآخرين.

كانت الأسواق الأدبية وغيرها من المناسبات في شبه الجزيرة العربية قبل الإسلام تشهد انخراط ممثلين عن القبائل، أو شعراء منها، في (المفاخرات)، وهي منافسات لتبيان أمجاد كل قبيلة، وفيها تتم الإشادة بكل عناصر الشرف لديها والإساءة القاسية إلى المناوئين. وتذكرنا هذه المنافسات باحتفالات البوتلاتش (Potlach) لدى الهنود الحمر في

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

الساحل الشمالي الغربي لأمريكا الشمالية، والتي وصلتنا عن طريق عالمة الانثروبولوجيا الأمريكية روث بينيديكت<sup>1</sup>؛ حيث كانت هذه الاحتفالات تعقد بين القبائل والعشائر. وفي بعض الأحيان بين العوائل والأفراد. وهي عبارة عن مبارزات أدبية أسهمت بقدر كبير في تطور الشعر والخطابة. ولكنها من جانب آخر أدت إلى تشجيع الحماسة الجامحة إلى حد جعلها كثيرا ما تنتهي بقتال عنيف أو حتى سفك للدماء. وهو ما يقود بدوره إلى نشوب الحرب. ولم تتوقف هذه المنافسات بعد الإسلام. وكانت تعقد أحيانا بحضور الخلفاء الذين لم يروا مانعا من المشاركة فيها.

إن العرف العربي القديم الذي يعتبر المبالغة في الاعتداد بالنفس أمرا مقبولا. وحتى أنه ينظر إليه كطريقة محمودة لتحسين صورة شرف المرء. يمكن اعتباره عرفا مؤسسا لميزة مشابهة في سلوك العرب في الزمن الحالي. فالميل إلى الاعتداد المبالغ به بالنفس يمكن ملاحظته بشكل خاص في كتابات وخطب القادة العرب الذين يكثرون من الإشارة دائما. وفي أي سياق. إلى جوانب مختلفة من عظمة العرب. إن الخطيب العربي يخاطب جمهوره بأنه «الشعب النبيل الفخور» ويحاول أن يثير فيهم رد فعل إيجابي أو حتى حماسي من خلال تمجيده باعتباره جزءا من الأمة العربية الكبرى باستخدام مصطلحات مكررة مبالغ بها. والإشارة ما تتصف به من بطولة ورجولة وإخلاص... الخ. إن هذا الميل إلى التفاخر قوي إلى درجة تجعله يظهر حتى في البيانات الرسمية التي تستخدم لغة الأرقام والحقائق في باقي أنحاء العالم. إذ قد يسمع المرء إشارات في برامج الإذاعة عبارات مثل «جنودنا الأبطال»، و«طيارينا الأبطال» وما إلى ذلك.

ونجد مظهرا من مظاهر هذا الميل في الكتابات السياسية الايديولوجية. ومثال على ذلك ما كتبه عبدالرحمان البزاز في كتابه الضخم حول القومية العربية (هذه قوميتنا)؛ حيث يورد عدة صفات يعتبرها جميعا مستمدة بشكل مباشر من القومية العربية ولا تنفصل عنها. وهي: الديمقراطية، والاشتراكية العربية، والتقدمية، والثورية، والواقعية.

(1) روث بينيديكت (Ruth Benedict): أنماط الثقافة: ص 141 وما بعدها.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

والحركية. كما نجد خطابا طويلا من هذا النوع في كتابات ناصر الدين النشاشيبي عند إجابته على سؤال: «لمذا نحن عرب؟» فيقول:

إننا عرب لأننا نؤمن بالله لا المادة، ونقدس الأنبياء لا السلاح. ولأن قوتنا هي أساس وجودنا... إننا عرب لأننا ذوو رسالة إنسانية تدعو إلى خير الجميع. إلى العدالة الاجتماعية، وللتعاون المشترك بين الطبقات. إننا عرب لأننا نحب استقلال بلادنا واستقلال الأمم جميعا جنبا إلى جنب معنا. ولهذا السبب لا نهاجم أحدا ولا نسلب منه حقه في الحياة... إننا عرب لأننا لا نتمسك برؤى الفلسفة الاجتماعية المستمدة من خارج أفقنا وحدودنا وأرضنا العظيمة. لأن هذه الرؤى تحطم وجودنا وتضر بكل ما هو مقدس عندنا...<sup>1</sup>

وفي مقابل مديح الذات نجد هجوما لفظيا على الأعداء. وقد كانت الإساءة اللفظية والتفريع الشفوي في الماضي. على شكل قصائد الهجاء، تعتبر جزءا مهما من الصراع مع العدو. ويمكن أن نجد المثال الأقدم على ذلك، بحسب المستشرق غولدزيهر، على شكل أبيات من الشعر في ما ورد في الكتاب المقدس عن طلب بالاق ملك موآب من النبي-الشاعر بلعام أن يلعن بني إسرائيل:

فتعال الآن والآن لي هذا الشعب لأنه أعظم مني، لعلي أتمكن من دحره وطرده من الأرض لأنني عرفت أن من تباركه يكون مباركا ومن تلعهن يكون ملعونا.<sup>2</sup>

ويمكن أن نضيف هنا مثلا آخر:

فوقف جليات ينادي... «إنني أعير وأتحدى اليوم جيش إسرائيل، ليخرج من بينكم رجل يبارزني». فقال الفلسطيني [جليات]: «أعلي كلب حتى تأتي لمحاربتي بعضي؟!». وشتم الفلسطيني آلهة داود، ثم قال لداود: «تعال لأجعل لحمك طعاما

(1) ناصر الدين النشاشيبي: الوحدة وقضية فلسطين: ص 28-29.

(2) العهد القديم: كتاب العدد: (22: 6).

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

لطيور السماء ووحوش البرية». فأجابه داود: «أنت تبارزني بسيف ورمح وترس. أما أنا فأتيك باسم رب الجنود إله جيش إسرائيل الذي تحديته. اليوم يوقعك الرب في يدي فأقتلك وأقطع رأسك وأعطي جثث جيش الفلسطينيين هذا اليوم لتكون طعاما لطيور السماء وحيوانات الأرض فتعلم المسكونة كلها أن هناك إلهها في إسرائيل.<sup>1</sup>

وتعود أصول هذه التحريضات التي تسبق المعارك إلى الاعتقاد البدائي بقوة الكلمة. أي فعالية اللفظ. وبالأخص عندما تكون هذه الكلمة إهانة تتسبب بأذى كبير عندما يتم تسديدها بدقة. وبالرغم من أن الهجاء استغني عنه لدى الشعوب العبرانية القديمة قبل نهاية العصور التوراتية بأمد طويل، فقد استمر العرب بالاهتمام به قبل الإسلام وبعده. وبقي الاعتقاد مستمرا بأن الهجاء ما أن يطلق ضد جهة ما فإنه. وإن كان لا يحمل ذرة من الحقيقة. يمتلك تأثيرا قويا وعواقب طويلة الأمد. ووفق ذلك: كلما كانت الإهانة أكثر عنفا. كلما كبر حجم العار الذي يلحق بالطرف المهجى دون أي اعتبار لمدى الحقيقة المتوافرة في الكلمات التي رشق بها. كما ينبغي أن تكون الإهانات مغلفة بغلاف شعري. أو سجعي على الأقل. وبهذا يجب أن تصدر عن شاعر. إن الإهانات الشائعة الموجهة إلى فرد ما. سواء أكانت ذات أساس واقعي أو لا. تحتوي في العادة على اتهامات بالجشع. والامتناع عن إكرام الضيف. وقلة الذكاء. والجبن. والتردد. وعدم الوفاء بالعهد. وغياب الحلم. والنسب المجهول. واختلاط النسب. وما إلى ذلك. كما تتهم الجماعة. كالقبيلة مثلا. بأنها قليلة العدد. ضعيفة. لا يعرف لها باع في الشعر والخطابة. مهزومة. هزيلة الأسلاف. مزيفة النسب. نساؤها غير منضبطات. وغير ذلك من العادات المرفوضة كأكل لحم الكلاب أو البشر: فكلما كانت الإهانة مفرزة أكثر. كلما ازدادت فعالية الهجاء.

اتصفت ردود الفعل على الهجاء بالعنف: فالويل كان نصيب الشاعر الذي تمسك به قبيلة نالها لسانه في السابق. فقد يقتل أو يقطع لسانه. وليس من الغريب أن يتسبب الهجاء

(1) العهد القديم: كتاب صموئيل الأول: (17: 10-46).

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

بين جهتين غير متحاربتين بصراع مسلح ليس له من سبب غير الإهانات اللفظية. ثم جاء زمن. بدءاً من القرن التاسع أو العاشر وما بعده. وجّه فيه الشعراء كلماتهم المسمومة ضد من يرعاهم إن وجدوه بخيلاً. وحينها تنوع الاتهامات من الجشع واللؤم وانحطاط النسب إلى الشذوذ الجنسي وغيره من الانحرافات. وكما هو حال خصائص ثقافية أخرى للعالم العربي استمر الهجاء حياً إلى يومنا هذا؛ لكن نبرته باتت أقل حدة. ولم يعد من المستساغ توجيه الإهانات المقرزة. أضف إلى ذلك أن أهداف الهجاء تغيرت. فلم يعد يوجه إلى القبائل المعادية وإنما إلى الأحزاب السياسية. وحكومات الدول العربية. والحكومات الأجنبية. والاستعمار والامبريالية. ومهما كان شكل الهجاء وتوجهاته. فإنه يبقى مثلاً آخر على بقاء البنى الأثرية في الثقافة العربية والأثر الراسخ للأنماط القديمة للفكر في العقل العربي الحديث.

وبينما يبدو العرب أكثر ميلاً إلى الجدل والخصام من القتال. فإن الحالة المعتادة للعلاقات بين التكتلات الاجتماعية العربية وضمنها كانت مطبوعة بطابع الصراع؛ ونتيجة لذلك يكاد يكون هنالك توتر دائم ناتج عن الشعور بالتهديد وما يستدعي ذلك من الحاجة إلى التهديد. ولضمان البقاء في وضع اجتماعي كهذا. ينبغي إنزال الخصائص العدوانية للفرد بمنزلة القيم. وعلى الثقافة أن تطور تقنيات لرفع كافة الميول العدوانية في النفس إلى أعلى قيمة ممكنة. وهنا تكون المفاخرة. والهجاء. وواجب الحفاظ على الشرف واستعادته إن فقد. والمرورة والرجولة... كلها خصائص يفرضها النظام الاجتماعي لإتاحة البقاء والازدهار في بيئة اجتماعية كهذه. وفي هذه البيئة هنالك هدف مثالي لا تستطيع هذه الصفات الثقافية إنجازها: وهو هدف الوحدة الذي بقي طوال التاريخ العربي عصياً على الإنجاز ولا يزال إلى اليوم بعيداً عن التحقق.

إن الانطباع العام الذي نخرج به من الاعتبارات السابقة جميعها يحتاج إلى إضافة؛ وهي أن التأكيد على استعمال الهجاء والمفاخرة والأسلحة غير القاتلة في النزاع كان طابع النزاع العربي - العربي بشكل أساسي. وكان القتال بين القبائل غالباً ما يتخذ نمط الغارة

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

التي يُتفادى فيها استخدام السلاح ما أمكن. وبالرغم من ذلك، عندما كان القتال يندلع مع غير العرب، أي مع غير المسلمين في أيام ازدهار الوجود العربي، كانت الحمية التي غرسها الإسلام قد غيرت مفهوم المعركة بشكل جذري. فأصبح (أن تكون قاتلاً أو مقتولاً)، وأن الشرط الوحيد لحفظ الأرواح هو خضوع الكافر واعتناقه الإسلام. لقد كانت الروح البطولية في هذه الحروب مدفوعة بالوعد الذي يقطع لكل من يشارك في الجهاد، والإيمان بأن قدر كل إنسان «مكتوب» من قبل.

### 3. الانقسام المزدوج

لا شك في أن كل من العداوات الثأرية، والحس المندفع تجاه السمعة الحسنة، والتشديد الكبير على ترابط الجماعة، جميعها تشكل المنابع الثلاثة الرئيسية لصفة الميل إلى الصراع التي تطبع بطابعها كل جوانب حياة الجماعة عند العرب؛ وهنالك عامل آخر قام خلال العصور بتضخيم الشعور العربي بالريبة والكراهية تجاه الغرباء عن هذه الجماعة. إن هذا العامل، وهو جزء جوهري من العرف النَّسَبِي الذي يرجع إلى أيام الوثنية، يقوم على أن العرب لا يعود نسبهم إلى سلف واحد، وإنما إلى سلفين عاشا في زمانين ومكانين مختلفين: في الجزيرة العربية، وأطرافها الشمالية؛ وعلى هذا الأساس يشكل العرب إلى أيامنا هذه مجموعتين منفصلتين. وبالطبع، لا يعود هذا العرف النَّسَبِي إلى أساس علمي، وإنما هو أسطورة، ولكنها أسطورة متينة قوية التأثير يتشرب بها عقل المجموعة، أو (الشطر Moiety) بحسب اصطلاحات الانثروبولوجيا، بما في ذلك من صورة نمطية محببة عن الذات وما يستتبع ذلك من صورة نمطية للشطر الآخر غالباً ما تكون غير محببة واستصغارية وعدوانية. وحيثما وجد هذا النظام المزدوج، وهو موجود بكثرة خارج الشرق الأوسط، يسود التنافس والعداء بين الشطرين. ودائماً تكون الزيجات المختلطة شائعة ضمن الشطرين: أي أن الرجل من الشطر (أ) عليه أن يتخذ له زوجة من الشطر (ب)، والعكس بالعكس. أما في الشرق الأوسط فالحالة معاكسة؛ إذ يكون الزواج ضمن الشطر

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

ذاته، وكذلك يكون الحال ضمن تقسيمات الشطر نفسه، مما يؤدي إلى حالة من الاغتراب بين المجموعات السكانية.

وفقا للأعراف، فإن قحطان هو أحد هذين السلفين، وهو يعتبر الجد المشترك لكافة القبائل العربية الجنوبية؛ أما السلف الثاني فهو عدنان جد كافة القبائل العربية الشمالية. ويعود أصل هذا العرف الذي يقسم العرب إلى شطرين شمالي وجنوبي إلى عصر ما قبل الإسلام، ووردت إشارة إلى ذلك في كتابات المؤرخ البيزنطي بروكوبيوس (Procopius) الذي عاش في القرن السادس الميلادي. وكان هنالك قديما اتحاد قبائل قبل ظهور الإسلام يدعى قحطان أو اليمن (بمعنى الجنوب)، ولا تزال القبائل القحطانية تقطن مساحات شاسعة جنوب مكة، وتعتبر اليمن في الركن الجنوبي الغربي من الجزيرة العربية الموطن الأصلي لهذه القبائل الجنوبية كافة.

يقول العارفون من علماء الأنساب العرب أن قحطان هو يقطان بن عابر المذكور في الكتاب المقدس<sup>1</sup> (التكوين 10: 25)، وأن عدنان هو ابن إسماعيل بن إبراهيم. وبما أن قدم شجرة العائلة يدل على نبلها عند علماء الأنساب، فإن القحطانيين أنبل من العدنانيين، وذلك لأن قحطان يفصله عن نوح خمسة أجيال، بينما هنالك 12 جيلا بين نوح وعدنان. وبهذا يكون القحطانيون أو القبائل الجنوبية أكثر أصالة من العدنانيين، بينما يعتبر العدنانيون أو القبائل الشمالية مجرد عناصر مستعربة. ولمزيد من التعقيد، يشار إلى هذين الشطرين بمصطلحات أخرى؛ كأن يدعى القحطانيون باليمنانيين، ويشار إلى العدنانيين بقيس أو معد أو نزار أو مضر.

توجد نقطتان في هذه الأسطورة النسبية لا تزالان تلعبان دورا مهما في العقل العربي المعاصر: الأولى أن جميع الشعوب في الأنحاء التي فتحها العرب لم تكتف بالاعتقاد بأنها تنتمي إلى العرق العربي بشكل عام، وإنما إلى قحطان أو عدنان. أما النقطة الأخرى

(1) العهد القديم: كتاب التكوين: (10: 25).

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

فتمثل في أن تلك الشعوب عندما تعتنق ذلك الانتماء فهي تنغمس في الصراع العسكري والسياسي والعائلي والعرقى الدائر بين الشطرين؛ وبتعبير آخر: تصبح تلك الشعوب عربا تابعة لأحد الفريقين. وبذلك تقوم بنقل كافة التنافسات الداخلية في ما بينها وبعاد ترسيمها وفق الشروط المحلية الجديدة للتنافس العربي القديم بين عدنان وقحطان، أو القيسيين واليمانيين.

بما أن الأنساب، وبالأخص ما فيها من الافتخار بالأسلاف ونقاء الدم، ذات أهمية كبرى في البنية الأخلاقية العربية، فإن اعتناق الأنساب العربية من قبل الشعوب في البلاد التي فتحها العرب في جنوب غرب آسيا وشمال إفريقيا جعلهم يبدون كالعرب الحقيقيين بعد أن لف النسيان خيالية هذه النسب بعد عدة أجيال، وبهذه الطريقة تم اعتبار الأرمن في العراق، والحاميين في مصر، والبربر في المغرب، وسكان اسبانيا الأصليين فروعاً للأسلاف الذين يدعي العرب الأصليون تحدرهم منهم. وجنبا إلى جنب مع الادعاء بالتحدر من سلف عربي شمالي أو جنوبي، اعتنقت تلك الشعوب الروح القتالية التي عبأت الشطرين لقتال بعضهما بعضا، ولم يمر وقت طويل على الفتوحات حتى وقعت معارك دموية بين الفروع الجديدة لغصني شجرة النسب العربية النابتة في مكان بعيد. وكان أصغر حدث قادرا على قدح شرارة حرب طويلة بين طرفين، فمثلا شهدت دمشق حربا قاسية دامت لسنتين لأن «شماليا» سرق بطيخة من حديقة «جنوبي»، وفي مدينة مرسية الاسبانية جرى الدم لعدة سنين لأن «شماليا» قطف ورقة عنب من حديقة «جنوبي»، وفي أوائل القرن التاسع دارت حرب لمدة سبع سنوات بين الفريقين، وقبل أن ينتهي هذا القرن خسر العرب تقريبا سيطرتهم على مقاطعة الفيرا في اسبانيا بسبب الخصومات ذاتها. ويلخص ذلك المشهد الكاتب فيليب حتي بقوله:

أينما ذهبت، في العاصمة كما في الولايات، على ضفاف نهر السند، وشواطئ صقلية، وحواف الصحراء، في كل ذلك تشعر بعداوات الأسلاف وقد تحولت إلى اصطفاف في حزبين سياسيين، أحدهما ضد الآخر. لقد كان ذلك عاملا قويا ساهم

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

في الإيقاف الكامل لتقدم القوات المسلمة في فرنسا، وانهيار دولة الخلافة في الأندلس.<sup>1</sup>

واستمر النزاع بين الفريقين إلى الوقت الحاضر في كافة أنحاء العالم العربي. وأدت نزعة الانقسام بين فريقين متنافسين في كثير من الأماكن إلى ظهور جماعات محلية ترجع أصولها إلى أحد السلفين: قيسية (عدنانية) أو يمانية (قحطانية). وفي حالات أخرى تكررت أكثر من السابقة. حدث أن يكون إخوة وأقارب مصدرا لذرية تنتمي إلى الفريقين، وذلك لم يمنع من وجود العداء بينهما. لقد كان القتال في فلسطين بين الفريقين علنيا ودائما إلى حد جعل المؤرخ والفيلسوف الفرنسي قسطنطين فرانسوا فولني يقول في نهاية القرن الثامن عشر:

إن هذا النزاع الذي استمر على امتداد البلاد منذ أيام العرب القدماء قد تسبب بحرب أهلية دائمة... وأدى الدمار المتبادل للفريقين المتنافسين إلى أن يبدو هذا الجزء من سوريا محطما أكثر من غيره.<sup>2</sup>

استمرت المناوشات بين القيسية واليمانية بشكل متواصل في القرن العشرين. ولم يكن غريبا على العين حينها مرأى العلم الأبيض لأهل الشمال والعلم الأحمر لأهل الجنوب في كافة المناسبات الرسمية. وليس من المستبعد أن ترجع هذه الأعلام في أصلها إلى مصر القديمة حيث كان لون التاج أبيض في مصر العليا، وأحمر في مصر السفلى، ولا تزال العشائر المصرية تستخدم اللونين كشعارات لها في أيامنا هذه.

في سياق التطورات الحديثة التي طرأت على عدة دول عربية، تحول الانقسام النسبي القديم تدريجيا إلى اصطفايات سياسية متنافسة تتمحور كل منها حول واحدة من العوائل المتعددية. وعندما حصل مثل هذا التحول تضاءلت أهمية عنصر النسب شيئا شيئا.  
(1) فيليب حتي: تاريخ العرب؛ ص 281.  
(2) قسطنطين فرانسوا فولني (C. F. Volney): رحلات عبر سوريا ومصر في الفترة (1783-1785): ج 2 ص 203.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

فشيئا. وصار بإمكان الأفراد وحتى الجماعات أن تغير ولاءها وتتحالف مع الجماعة المضادة إن انجذبت لها لسبب أو لآخر. وثمة مثال قديم على ذلك التحول حصل في القرن الثامن. حيث قام الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك بالتحول من اليمانية إلى القيسية لما يبدو أنها أسباب مالية بحتة. وكمثال حديث على ذلك نذكر ما يجري في دولة عمان المعاصرة: إذ ينبغي على القبيلة الضعيفة التي تسكن بالقرب من تحالف قبلي قوي، ومهما كان أصلها. أن تضع نفسها تحت حماية جيرانها الأقوياء. وأن تلتحق في نهاية الأمر بفريقهم السياسي الذي لا يزال يعتبر وفق وجهة النظر الشعبية مجموعة نسبية كبيرة واحدة. ولكن سواء تم اعتبار الشطرين مجموعتين نسبيتين، أم قامت بالتحول إلى أحزاب سياسية، فإن أنماط التنافس والعداء تبقى دون تغيير. وكذلك حال الصور النمطية السلبية التي يعتقد بها كل طرف حول الآخر.

إن لأسطورة النسب العربي المزدوج والانقسام الذي يرافقه أهمية في دراسة النفسية العربية. وهذا يعود في الأساس إلى ما ينتج عن ذلك من استعداد مسبق للخصومة والعداء المدمرين على عدة أصعدة مختلفة. وبشكل عام، لا يعلم العربي العادي، ولا قيادته على حد سواء، الكثير عن العداوة القديمة بين الفريقين، ولا عن مجرد وجودهما. ولكن أعراف القتال، وتحشيد الجماعة لأفرادها ضد جماعة أخرى تحتل موقعا موازيا في السلم الاجتماعي، والضغط المتواصل لتأييد وإثبات أسبقية الجماعة على غيرها. كل ذلك يجري في العربي مجرى الدم. ولا شك في أن هذه العادات والتقاليد تساهم بشكل كبير في الميل إلى الصراع الذي لا يزال يميز العلاقات العربية في كافة مستويات البنى القبلية والاجتماعية والسياسية.

### 4. الميل إلى الصراع

يقول أحد المنتميين إلى الطبقة الملكية التي حكمت اليمن في السابق:

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

لا تزال شعوب اليمن وعسير شعوبا متوحشة. فالأخ لا يتق بأخيه عندهم. إنهم يعيشون حياة لا يغيب عنها الخوف والقلق... إنهم كالحوانات البرية التي تخاف من أي شيء أو أي شخص قد يقترب منها. وفيما يخص اليمن: فإن شعبنا جميعه مسلح. وجميعه يقاتل. وجميعه يقتل لأنفه الأسباب. إننا شديدا الغيرة على حقوقنا... وإذا حدث في قرية أن تنازعت عائلتان فجأة نجد القرية كلها انقسمت كلها إلى فريقين يشاركان في القتال. وقد تتطور الأحداث إلى حرب. ولن يسأل أحد عن سبب القتال إلا إذا خمدت الحرب. إنهم يقاتلون أولا ثم يسألون عن سبب القتال. هذه هي الحياة في اليمن. حتى أننا نحارب أقباءنا؛ فالأخ يقاتل أخاه. والأبن يقاتل أباه.<sup>1</sup>

بالرغم من أن هذا الوصف يحمل نبرة لا شك في أنها تعكس استعلاء الطبقة العليا على الطبقة السفلى من أبناء الريف. أضف إليها الميل العربي للمبالغة. فإن القتال الداخلي متعارف عليه بكثرة في كافة أنحاء العالم العربي إلى حد يجعل المرء يتقبل حقيقة الوضع العام الموصوف في النص السابق؛ وهذا لأن من الحقائق المقبولة كون التاريخ المحلي لأي قطر عربي يتكون بشكل رئيسي من صراعات بين فريقين متضادين على امتداد كافة الطبقات المتتالية في السلم الاجتماعي. وفي معظم الحالات نجد أن قريتين متجاورتين تنتميان إلى فريقين متضادين. وهذا لوحده كاف للتحريض بينهما. وفي مصر العليا. مثلا. نجد أن قريتين على ضفتي قناة مائية كثيرا ما تدخلان في قتال يخوضه الرجال الأشداء بعصيتهم الغليظة. أو بأسلحة أكثر خطرا في بعض الأحيان. إذ يقوم رجال إحدى القريتين بعبور القناة ودخول سوق القرية العدو. ويفتعلون قتالا هناك. وفي المناسبة القادمة. يرد رجال القرية الأخرى هذه الزيارة. وفي السنين الأخيرة انتقلت هذه العداوات التقليدية إلى الميدان السياسي. والأمثلة على هذا المزاج القتالي بين القرى كثيرة إلى حد يجعل ذكرها هنا أمرا مملا.

(1) أمين الريحاني: ملوك العرب: ج 1 ص 117.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

بحسب الظاهر، يبدو أن درجة العداة بين أي جماعتين تزداد بنقص المسافة التي تفصل بينهما، وذلك القرب لا يعدو في كثير من الأحيان كونه مسألة قرب في المكان؛ إذ ينشأ العداة الأشد بين قريتين إذا كانا أقرب لبعضهما البعض من باقي القرى الأخرى. وقد يتحول هذا القرب ليلعب دورا في العداة بين حيّ وآخر أو منطقة وأخرى في نفس القرية أو البلدة. ونجد مثالا على ذلك في بلدات منطقتي معان والكرك في الأردن، ولغوات في الجزائر، وسيوة في صحراء مصر الغربية، وقرية سيلوة في مصر العليا، وقرية بير قرب القدس.

تقوم الأسر الكبرى المتحاربة في بعض الأحيان بتحويل أتباعها إلى أحزاب سياسية، ويلاحظ هذا التطور على مستوي القرية والمدينة على حد سواء؛ فعلى سبيل المثال: في بلدة سيرس اللبان الواقعة في دلتا النيل، وهي قرية تعداد سكانها 22 ألفا، اعتاد الناس على وجود انقسام تقليدي ما بين شمال القرية وجنوبها اللذان يترأسهما شيخان ينتميان إلى الأسرتين الكبيرتين، ويتكون كل قسم من عدة جماعات كبيرة تنحدر منه، ويتوزع كل قسم بين مسلم وقبطي. وعندما تم إنشاء منصب (عمدة) في القرية في القرن التاسع عشر، تم اختيار زعيم إحدى الأسرتين لشغل المنصب، وبعد ثورة حزب الوفد عام 1919، أصبحت القرية مهتمة بالسياسة وقامت بممارستها، وتحول عندها الانقسام النسبي إلى خصومة سياسية تجسدت في أحداث دفعت الباحث الذي درس القرية إلى أن يخفف من وطأة الحقيقة بوصفها بأنها «من المفزع ذكرها».

ويمكن ملاحظة تطور شديد الشبه في مدينة القدس خلال فترة الانتداب البريطاني، إذ توجد هنالك عائلتان ضمن السكان العرب هما: الخالدي والحسيني، وهما يمثلان الشطرين: القيسيين واليمانيين على الترتيب منذ أجيال عديدة، وفي فترة الانتداب دخلت العائلتان حالة الاستقطاب السياسي، فأصبحتا تنافسان على الزعامة السياسية للمدينة، وهي زعامة كانت تعني التربع على قمة الهرم السياسي الفلسطيني بأكمله.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

كما تتصف البنية الاجتماعية اللبنانية بالانقسام المزدوج في كل تجمع مناطقي أو عرقي. وهذا ما هو إلا إفراز محلي للتقليد العربي القديم القائم على الشطرين المتنافسين. إن العشائر المنحدرة من أصل واحد والقرى ومناطق المدن وحتى العوائل الصغرى تبدو عليها مظاهر الانشطار المزدوج. ودائما ما تستغل السياسة هذه الازدواجية التي تعتبر ميزة مهمة تتمكن بواسطتها من اختراق الحدود الحساسة على الرغم من الأهمية الهائلة التي تولى للتوجه الديني في العالم العربي بشكل عام. ولبنان بشكل خاص: حيث أن جماعات تنتمي إلى طوائف من الدين ذاته. أو إلى أديان مختلفة. يمكن أن تشكل أجزاء من الشطر النسبي ذاته. وبشكل معاكس. قد تكون الطائفة أو العقيدة ذاتها تضم أعضاء في كلا الشطرين. وعلى سبيل المثال. كانت كل طائفة دينية في لبنان أثناء الحرب الأهلية الأولى عام 1958 منقسمة بين شطر يوالي الحكومة وآخر يتمرد عليها. وكان من الطبيعي في حالة شهدت قتالا شاملا كهذه أن تنفتح جروح الكثير من العداوات الداخلية القديمة. فقامت العديد من العشائر المتعادية بمحاولة تسوية الخلافات القديمة وأخذ ثارات طالما خططت لها ضد عدو قريب مفضل على غيره.

إن العصيان الشعبي. متمثلا بالمقاومة المسلحة للحكومة. هو مما يحتمل حدوثه بشدة في الدول العربية: فالحروب الداخلية كالصراع بين الجمهوريين والملكيين في اليمن. والفصائل المسلحة الفلسطينية والجيش الأردني. تبدو من وجهة النظر التاريخية تمظهرات لميول الاقتتال الأخوي عند العرب. ولكن حتى حينما لا تظهر هذه الميول على السطح. فإن أغلبية العرب يؤمنون بأن العالم كله هو مكان عدائي يجب أن يكون المرء فيه مستعدا وقادرا على الدفاع عن نفسه وعائلته بقوة السلاح. حتى وإن كان عدوه هو جاره الملاصق له. والحكومات العربية مدركة بشكل جيد لهذه الحقيقة. لذلك تراها تتردد. إلى وقت قريب على الأقل. في فرض إرادتها على الناس في القضايا التي يعارضونها فيها: فعلى

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

سبيل المثال، عجزت الحكومة العراقية عن فرض برنامج حكومي عام 1935 لأن الشعب العراقي كان يمتلك ما لا يقل عن مئة ألف بندقية مقابل 15 ألفا تمتلكها الحكومة.<sup>1</sup>

يمكننا أن نؤكد ترافق العدوانية مع القرب الايديولوجي لا مع القرب المكاني، وبما أن الدين يعد إلى يومنا هذا أهم العوامل الايديولوجية عند العرب، فقد يتبادر إلى الذهن أن العداء بين العرب المسلمين ونظرائهم المسيحيين أشد من العداء بين الطوائف العربية المسلمة، لكن قاعدة (أكثر قريبا = أكثر عداء) تفرض نفسها على أرض الواقع هنا أيضا. وهذا ما خلصت إليه دراسة قام بها الباحثان في علم النفس بروثرو (Prothro) وميليكيان (Melikian) في الجامعة الأمريكية في بيروت، وكان النموذج المعتمد في هذه الدراسة استطلاع رأي قديم أجري على الطلاب عام 1935، ومما أسفرت عنه الدراسة أن الأعوام الستة عشر الماضية شهدت تزايدا في العداء بين السنة والشيعة إلى حد عبر فيه السنة عن عداء ضد الشيعة يفوق ما أظهره تجاه الطوائف المسيحية، وأن العداء بين مجموعتين لهما غاية واحدة ووسائل مختلفة لتحقيقها كان يفوق في حالات كثيرة العداء بين مجموعتين مختلفتي الغاية: إذ قال مسلم واحد فقط من بين 49 مسلما أنه يتمنى أن يتعرض المارونيون جميعا للقتل، بينما قال خمسة من بين 54 مسيحيا غير ماروني أنهم يتمنون الأمر نفسه للموارنة.<sup>2</sup>

إن الميل العربي إلى الصراع يؤدي إلى عواقب أكثر سوءا في المجال السياسي مقارنة بغيره: فبغض النظر عن الطرح المثالي لفكرة الأمة العربية التي تلهج بذكرها السنة القادة العرب في كافة البيانات الرسمية، فإن الواقع يقول أن العلاقة بين الحكومات والأحزاب سيطر عليها العداء المرير منذ الحرب العالمية الثانية التي كانت بداية الوعي السياسي العربي الكامل والنشاط السياسي العربي المكثف. وفي أفضل حالاته كان هذا العداء ساكنا دون حركة لبرهة من الزمن، وفي أسوأ الحالات كان يندفع إلى العلن بشكل

(1) مجيد خدوري: العراق المستقل: ص36.

(2) بروثرو (Prothro)، ميليكيان (Melikian): البعد والتغير الاجتماعي في الشرق الأدنى: ص3-11.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

انتقادات نارية، وإعداد لاغتيالات وهجمات وتهديدات على جانبي الحدود. وكل عدة أشهر كان يحدث انقلاب عسكري يليه إعدام أو سجن القادة المخلوطين. وبين هذين الوضعين، كانت تجري سلسلة طويلة من اللقاءات بغرض تسوية الخلافات وصياغة القرارات في القضايا ذات الاهتمام المشترك على المستوى العربي. ولكنها كانت تنتهي في معظم الأحيان بخلافات يفوق عددها ما كانت عليه عند بدء اللقاءات. وفي الواقع، فإن الجامعة العربية، والتي نشأت في الأصل كأداة لتحقيق الوحدة العربية، طالما كانت المكان الذي تتضارب فيه مصالح الدول العربية.

من الطبيعي أن لا يغيب عن المراقب الخارجي ملاحظة هذا العجز عن تفادي الانقسام والخلاف والاتهامات المتبادلة؛ حتى أن جمال عبدالناصر تهادى إلى حد استنكار ما يعامل المصريون به بعضهم البعض من عدوانية. فكتب أنه لم يسمع أبدا مصريا يتكلم بإنصاف عن مصري آخر. ولم ير مصريا «فتح قلبه بالصفح والغفران والحب لأخيه المصري». أو «لم يجند وقته لتدمير وجهة نظر مصري آخر»<sup>1</sup>. ويميل قادة آخرون إلى حصر انتقاداتهم بالحكومات العربية الأخرى، والشكوى من الانقسام والتأمر الذي تتصف به العلاقات العربية-العربية على مستوى القيادات؛ ونلمس ذلك جليا في كتاب الملك حسين (حربي مع إسرائيل): فيه اشتكى الملك حسين من أن بعض الإذاعات العربية تعلن رغبتها بتحرير عمان قبل تحرير فلسطين، وأنه اضطر للتعامل مع 12 مؤامرة حيكت خارج الحدود.

وقد تبين من خلال الملاحظات التي سطرها معظم المحللين السياسيين العرب أن العرب يجدون من الصعب عليهم أن ينحوا جانبا النزاع والتخوفات وإن كان ذلك حين مواجهة عدو مشترك؛ ففي كتاب (العراق الجمهوري) ناقش د. مجيد خدوري العلاقات العراقية السورية من أحد جوانبها؛ فذكر أن عام 1956 شهد تمركز قوة عسكرية عراقية في الأردن لمساعدته على مواجهة أي هجوم إسرائيلي محتمل، ولكن السوريين اعتبروا القوة العراقية غير قادرة على الدفاع عن الأردن، وفسروا الأمر بأنه تهديد لسوريا أكثر من

(1) جمال عبدالناصر: حرية مصر: ص35-36.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

كونه تهديدا لإسرائيل. كما أشار خدوري في سياق آخر إلى الانتقاد الذي تعرض له القادة العرب الذين يهدرون القوى البشرية العربية في الحرب الأهلية اليمنية.<sup>1</sup>

وكثيرا ما طرح المحللون السياسيون العرب المعاصرون تعليقاتهم حول العوامل التي تحول دون الإنجاز العملي للوحدة العربية التي يؤمن العرب جميعا بها ويرغبون بتحققها. وفي الكتاب الذي ألفه نبيه أمين فارس بالاشتراك مع محمد توفيق حسين هنالك ذكر لثمانية عوامل، وهي: تنافس الأسر الحاكمة، القوى الخارجية، الأقليات الدينية، الأقليات القومية، تنوع الأهداف السياسية، اختلاف مستوى التطور السياسي، اختلاف المستوى الاقتصادي والاجتماعي، اختلاف المستوى الثقافي.

إن العوامل السابقة لا يمكن استبعاد دور أي منها في العالم العربي الحديث، لكن هنالك تعليقان يجب أن يذكرنا، وهما: أولا، تبدو هذه العوامل بعيدة بالكامل عن مجريات التاريخ وتحدث عن سياق معاصر، وذلك باستثناء مسألة الأقليات التي تعتبر أمرا ذا أهمية ضئيلة نظرا لوجود أغلبية عربية مسلمة واسعة النطاق. وقد تعدى المؤلفان ذلك إلى إعطاء انطباع بأن ما حدث كان نتيجة لقيام الغرب بتمزيق العالم العربي، وتقديم أنظمة الحكم الملكية والجمهورية وغيرها، مما نجم عنه ظهور ميول وطنية وقومية محلية أدت إلى تغيرات اقتصادية واجتماعية متفاوتة بالإضافة إلى منجزات ثقافية شديدة الاختلاف. كما أهمل المؤلفان ذكر الأسس الكثيرة التي أدت إلى حالة التجزئة العربية، وهي أسس تمضي جذورها بعيدا في الماضي العربي في فترة الجاهلية وأوائل الإسلام، ولا تزال تمد التجزئة بالحياة إلى يومنا هذا.

أما التعليق الثاني فهو أن المؤلفين لم يذكرنا شيئا عن التجزئة التي تتسبب بها النزاعات القبلية التي تؤلب أفراد جماعتين متجاورتين على بعضهما البعض دون سبب يذكر في معظم الحالات غير أنهما يشكلان فرعين من القبيلة ذاتها وفي ذلك ما فيه من العداء

(1) خدوري: مصدر سابق: ص 24، 223.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

والكراهية والتنافس الذي يعود إلى قرون مضت. إن هذه العداوات بين الكتل الاجتماعية التي لا تختلف من الناحية العرقية. كما في حالة قرنتين متقابلتين على ضفتي النيل. تبقى عامل مقسما قويا في العالم العربي حتى وإن استبعدنا كافة الأسباب الأخرى التي ذكرها فارس وحسين.

وفي كتاب آخر ألفته الكاتبة ليلي قاضي حول مؤتمرات القمة العربية نجد تحليلا للعوامل المقسمة يأخذ منحى أكثر اهتماما بالشأن السياسي. وبالأخص ضمن مستوى القيادات. وترى قاضي في كتابها. والذي جاء بعد حوالي 12 عاما من الكتاب السابق. أن الفترة (1950-1936) كانت فيها «التنافسات والطموحات المتضاربة للقوى الاستعمارية في الشرق الأوسط قد تم تمريرها على نطاق واسع إلى الأنظمة التي باتت تحكم الدول العربية بعد استقلالها». وأن القوى الاستعمارية السابقة استردت رغم ذلك «ما يكفي من القوة للتأثير على مختلف القادة العرب من أجل أن يعملوا وفق مصالح القوى الاستعمارية السابقة». وتشير قاضي بعد ذلك إلى أن «تفاوت المصالح بين الدول العربية ربما يكون ناجما عن الطموحات الشخصية لبعض القادة العرب الذين يسعون إلى توسيع نطاق نفوذهم إلى أقصى المستطاع على حساب الدول العربية الأخرى... وهذا يكشف بصراحة عن العقلية القبلية القديمة لهؤلاء القادة». ثم تنتقل قاضي إلى العامل الثالث فتقول بأن بعض الدول العربية. مثل سوريا ولبنان والعراق. كانت فيها الأنظمة الحاكمة لا تقتصر في تمثيلها على الكيانات الإقطاعية التقليدية وشيوخ العشائر والعوائل الارستقراطية. بل شملت الطبقة الوسطى الناشئة (البرجوازية) التي قدمت قيادات الصراع من أجل الاستقلال. وأن هذه الطبقة التي كانت رجعية في رؤاها وأساليبها وممارساتها قد كانت متركزة في المدن. ومنشغلة أساسا بالتجارة مع القوة الاستعمارية السابقة مما جعلها معتمدة عليها.

كما لاحظت قاضي أن الفترة (1964-1966) شهدت دخول عامل جديد مع استمرار العوامل السابقة؛ وهو:

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

انقسام العالم العربي إلى معسكرين: معسكر ثوري يدعو إلى تبني المعايير الاشتراكية المتطرفة عموماً لعلاج العلل الرئيسية المسؤولة عن التخلف. ومعسكر رجعي يدعو إلى التلازم بين المحافظة على الظروف السائدة وإجراء بعض الإصلاحات الاجتماعية المعتدلة.

وترى الكاتبة أن هذا التفاوت قد يوجد حتى ضمن الدولة العربية الواحدة أيضاً فتقول: «قد يكون لفئات عديدة من شعب الدولة العربية الواحدة ولاء أكثر وشعور بتألف أكبر حيال النظام الثوري والسياسة المتبعة في دولة أخرى مقارنة بما يشعرون به تجاه النظام المحافظ في دولتهم». ثم تحذر قاضي من أن هذين «النظامين». أي الثوري والرجعي (أو المحافظ). يقومان «بالمضي سريعاً نحو نقطة لا يمكن لأي منهما أن ينجو فيها من الزوال إلا على حساب تعرض الآخر إلى تعديل جذري (إذا أردنا تجنب الحديث عن القضاء عليه نهائياً)». ويظهر اختلاف المصالح بين المعسكرين من خلال الدعوات المنفصلة لعقد المؤتمرات العربية. والتحالفات التي يستمر بها أو يسعى إليها كل منهما في الساحة الدولية. إذ «ترتبط مصالح المعسكر الرجعي مع القوى الرأسمالية الغربية بشكل وثيق. بينما تتوثق أواصر التعاون شيئاً فشيئاً بين المعسكر الثوري والقوى الشيوعية الشرقية»<sup>1</sup>.

وينبغي هنا أيضاً أن نشير إلى أنه على الرغم مما تحدثه فجوة المحافظة/الثورية من مشكلة خطيرة أكيدة في العالم العربي، فإن من التبسيط المخل أن تعزى حالة التجزئة العربية إلى هذا العامل وحده.

إن ما خلصت إليه من التحليل السابق هو أن حالة التجزئة العربية مظهر من مظاهر ميل كان ولا زال جزءاً من الشخصية العربية منذ عصر الجاهلية. سواء أكان ذلك على مستوى الممارسة الفعلية أو الإمكانيات؛ فالنزعة القتالية تظهر إلى السطح بتأثير

(1) ليلي قاضي: مؤتمرات القمة العربية والمشكلة الفلسطينية (1936-1950). (1964-1966): ص 191-193.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

أصغر شرارة تقدح أوارها. فيبدأ الشجار ويتطور سريعا إلى عنف جسدي؛ وفي ما يتعلق بهذا التطور، يبدو أن جاهزية العربي لإطلاق الإهانات العنيفة والتهديدات، إنما هي في الأصل آلية يتمثل هدفها النهائي في منع النزاع اللفظي من التحول إلى عنف جسدي. وكلما كان ما يمكن أن ندعوه «النزاع اللفظي» قادرا على الاستمرار، فإن الآمال تبقى بأن تخمد المشاعر الثائرة بالكلمات وأن تبقى السيوف في أغمادها. وبازدياد سوية الانفعال في الإساءة اللفظية، تزداد احتمالية أن تقوم هذه الإساءة بتوفير الرضى الكافي مما يمنع تطور الموقف إلى عنف جسدي؛ ولكن إذا حدث وبدأت المرحلة الثانية من الصراع، أي مرحلة العنف الجسدي، تتفعل آليات نفسية أخرى أقدم من السابقة لتجعل من المستحيل عمليا لأي طرف في النزاع أن يتوقف عن القتال إلا إذا انهزم بشكل كامل ونهائي، أو إذا أدت وساطة إلى إنجاز تسوية لهذا النزاع.

إذا ما أخذنا جميع العناصر السابقة بعين الاعتبار فإن التوتر القائم بين الوحدة والصراع يمكن أن يعتبر المثال الأمثل عن الهوس العربي بالمفاهيم المثالية، ومنها الوحدة في بحثنا هذا، إذ تراه يتمسك بها عاطفيا حتى وإن كان يعلم بأنها تتناقض وتتنافى مع الواقع، والواقع في هذه الحالة تحكمه حالة الصراع. ويعبر الباحث مورو برغر عن ذلك بقوله:

العرب لا يميزون بين الجانبين: المثالي والعملي؛ فهم يدعون بأنهم يعتقدون -خلافا للواقع- بأن المثالي متحقق بالممارسة وأنه متطابق مع العملي. وذلك بالرغم من أن المثالي ليس غير المعيار الذي يستند إليه تقييم العملي<sup>1</sup>.

إن هذا الوضع ينتابه التعقيد من منطلق أن «الوحدة» ما هي إلا مفهوم مثالي شديد التجريد وبعيد عن الواقع. بينما يتمتع الصراع بأسس وسوابق تاريخية في قيم العالم العربي القديم كالرجولة والعدوانية والشجاعة والبطولة والإقدام والثأر، وهي قيم مجدها

1) مورو بيرغر (Morroe Berger): العالم العربي المعاصر: ص 160.

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

الشعراء في قصائدهم وبقيت ماثلة في ضمير الفرد العربي تدفعه نحو الصراع وإن كان يؤمن بوحدة العرب وإخوتهم.

من الممكن تمييز مصدرين من مصادر الميل العربي إلى الصراع دون عناء: الأول هو التنافس بين الأقارب الذي تزرعه الأم العربية في أطفالها؛ وهذا من الأدوات المفضلة التي تستخدمها الأم العربية لتحسين سلوك الطفل من خلال تحريضه على إبداء استجابة مدفوعة بالغيرة من هؤلاء الأقارب. فمثلاً: إن رفض الطفل تناول الطعام تقول له: «إن لم تأكل، أعطيت الطعام لأخيك» وتقوم بحركة توحى بأنها على وشك إعطاء الطعام لأخيه. ويكفي ذلك في معظم الأحيان لتغيير قرار الطفل المعاند: أو إذا عجز الطفل عن أداء ما تطلبه أمه منه أو رفض القيام به فإنها تقول له: «انتبه، أخوك يمكنه القيام بذلك. فلماذا لا يمكنك؟». إن تكرار هذه المشاهد بكثرة أمام الطفل يقوده في سن مبكرة إلى اعتبار أخيه، أو قريبه، خصمه الرئيسي، ومن الطبيعي أن تقارب العمر بين الطفلين يزيد شدة شعور التنافس بينهما. وفي بعض أنحاء العالم العربي يعتبر التنافس بين الأقارب محرماً أساسياً في عملية نمو الطفل، ويتم تحريضه عمداً، وتبين بقايا هذه الأداة المستخدمة لتنشئة الطفل في عقل الفرد العربي البالغ من خلال الإحساس الملح بالتنافس، وبالأخص بين الأفراد والجماعات الذين يحتلون نفس الموقع في المنزلة النسبية، أو يتواجدون في أمكنة متجاورة.

كما يعتبر تفضيل زواج الأقارب عاملاً آخر يضاف إلى عوامل الميل إلى الصراع. ففي زواج الأبعاد يكون للرجل روابط ألفة مع جماعة ليست من أقاربه تزوده بزوجة، وهنا تلعب الزوجة دور حلقة وصل طبيعية بين جماعتين ينتمي زوجها إلى واحدة منهما، وينتمي إلى الأخرى عائلتها من جهة الأب. وإذا ما حدث توتر أو خلاف تميل هاتان الجماعتان إلى تفادي تدهور الوضع إلى صراع، وسيتردد أي رجل في حمل السلاح ضد جماعة مجاورة ينتمي إليها آباء وإخوة زوجته أو أزواج بناته وأخواته. لكن واقع المجتمع العربي بعكس ذلك؛ فالبنية الاجتماعية العربية تأسست على تعزيز عزلة الجماعة، وذلك ما يتأتى عن النسب الأبوي

# العقل العربي

## الفصل الثالث عشر: الوحدة والصراع

الذي يفرض تحدر المرء من أبيه ثم جده الأبوي فصاعدا. دون اعتبار لجده من جهة الأم أو لأسلاف هذا الجد. وهكذا فإن الأم وإن تحدرت من جماعة خارجية (كأن تكون قرية أو بلدة أخرى) فلا يؤثر ذلك في اقتصار انتماء المرء على جماعة أبيه التي يدين لها بالولاء الكامل الذي لا شك فيه. وعندما يكون الوالدان أبناء عمومة، وهي الحالة المثلى. فإن ولاءه إلى نسبه الأبوي يتعزز من خلال حقيقة كون جديه من جهة الأب والأم أخوين. وأنه بالرجوع جيلا واحدا يصل به النسب إلى سلف واحد يكون في الوقت نفسه جد أبيه وجد أمه. إن الرجل الذي ينشأ في مجتمع تكون فيه الحالة المثلى كهذه العائلة المنغلقة على نفسها تجده يميل إلى النظر إلى الوحدات الاجتماعية المتعاقبة من حيث تزايد العدد باعتبارها امتدادات نسبية للعائلة ذاتها: فمهما كان حجم هذه الوحدات فإنها تبقى، نظريا، ذرية أبوية لسلف أساسي واحد. وكلما كبر حجم الوحدة تباعدت المدة الزمنية التي عاش فيها ذلك السلف المشترك: وكلما صغر حجمها تمتنت علاقات القرابة وقوي الشعور بها وازدادت الجاهزية للقتال في سبيل مصالحها ضد التشكيلات النسبية الأبعد.

ومهما يكن من أمر، فإن الحقائق تقول بأن الميل إلى الصراع يمثل خاصة مهمة من خصائص العقل العربي.